البحرين في القرن السابع الهجري

الصراع بين قيس وهرمز يفتح

بقلم: الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة

الأمير محمّد بن محمّد بن ماجد يتصدّى لجيش السلطان السلغري ويدحره فوق جزيرة أوال

الباب لوصول السلغريين إلى الخليج

كان القرن السابع الهجرى هو قرن المأساة ، والقارىء لما سطرته اقلام المؤرخين سوف يواجه بالتشاؤم الشديد فقد نشطت اقلام المؤرخين تنعى الاسلام والمسلمين . وخيمت على سماء القرن ظلال سوداء أثارتها فى الافاق الاسلامية خيول المغول وهجمات الصليبيين . وأخذت الخلافة العباسية تلفظ اخر انفاسها بعد ان اصبح الخليفة العوبة فى ايدى الجند ، وشاع التمزق والتقاتل والتصارع فى كل الارجاء يفتك بمختلف الدول التى نشأت تحت عباءة الخلافة . وفى الخليج أثارت الهجمات الكاسحة على العالم الاسلامى الامواج فشهدت المياه الهادئة هى الاخرى بعض الحروب والصراعات وفوق أرض البحرين أخذت الفرقة تمزق الدولة العيونية لتسرع هى الاخرى نحو الهاوية ولكن قبل السقوط كانت هناك قصة هى قصة الصراع الذى امتد من أوال والقطيف والاحساء الى جزيرة قيس وهو الصراع الذى اشتركت فيه قوى اخرى هى قوى شيراز والدولة السلغرية والمغول والدولة الخوارزمية ليرسم بعض ملامح التاريخ فوق هذه الارض خلال ذلك القرن

يجمع المؤرخون على ان القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى ، كان قرن النحس بالنسبة للاسلام والمسلمين ، ويقولون ان هذا القرن كان من أسوأ القرون التى مرت بالعالم الاسلامى الذى أطلت شمسه على بقاع شاسعة من المعمورة والذى حمل المسلمون راياته الى أقصى الغرب الافريقى والى مناطق موغلة فى الشرق الاسيوى . ففى هذا القرن بدأت الخلافة العباسية طريقها نحو النهاية ، وفتكت دسائس الخصيان والعبيد وقادة الجند بما امتاز به البيت العباسى من صلابة ، وأخذت قبضة الخلافة تضعف تدريجا وتتآكل تبعا لضعفها الاقاليم وتحول العالم الاسلامى الفسيح والقوى الى خلافة هزيلة تلفظ انفاسها الأخيرة . ودويلات أخذت تظهر هنا وهناك فى جو من التقاتل والتناحر والعداوة .

ونظرة واحدة على خريطة العالم الاسلامى انذاك تؤكد هذه الحقيقة المرة .

ففى غرناطة بالاندلس كانت دولة بنى نصر وفى شمال افريقيا كانت دولة الموحدين وفى الجزائر الدولة الزيانية وفى تونس الدولة الحفصية وفى مراكش الدولة المرينية وفى مصر دولة المماليك البحرية وفى اليمن الدولة الرسولية ، وفى صنعاء أحد أئمة الزيدية وفى بلاد الروم من السلاجقة ركن الدين قليج ارسلان الرابع وفى ماردين الدولة الارتقية وفى فارس الاتابكية السلغرية وفى لورستان الاتابكية الهزارسنية وفى كرمان دولة قطلغ خان [1].

دويلات هنا وهناك . أما فى بغداد فقد كان الخليفة العوبة فى يد الامراء الاتراك ثم فى ايدى بنى بوية الديلميين والسلاجقة ولم يعد له سوى الاسم خاصة وقد ثبت فى أذهان الناس منذ العصور الذهبية للاسلام أن الخلافة نظام لابد منه لصلاح العالم . وأصبح كثير من الامراء فى هذه الدولة وهم الامراء الذين كونوا لأنفسهم دولا بحد السيف يلجأون الى الخليفة حتى يعترف بهم ليحصلوا على تأييد الشعوب التى يحكمونها . وحتى يدعموا حكمهم بالشرعية . وان كانت شرعية هشة لا تقدم ولا تؤخر .

وفى القرن السابع أيضا أصبح العالم الاسلامى مستهدفا ـ وهو شيء طبيعى ـ لهجمات ضارية وكاسحة من القوى المعادية المحيطة به ، فواصلت أوروبا الاستعداد لتجريد حملة صليبية جديدة هى الحملة الرابعة على الشام ومصر ، وانطلقت جحافل المغول والتتار[2] تعربد فى أرجاء الارض الاسلامية وهى تكتسح فى طريقها كل شيء . الناس والمدن والزروع وتنشر الموت والدمار والخراب فى كل مكان . وقد كانت هجمات المغول شديدة الوطأة لدرجة ان الكثيرين تصوروا وقتها ان الاسلام قد انتهى وان المسلمين قد أبيدوا . واذا كان جنكيز خان[3] قد توقف بحملاته عند فارس وانطلقت قواته شرقا لتستولى على معظم اراضى الصين وتضم

تـركـسـتــان وبــلاد مــا وراء النـهــر وأفغـانسـتــان والدول الواقعــة جنـوب الروسيا فان حفيـدة هولاكـو[٤] تطلع فى زحفـه نحو الغـرب فاكتسـح اتابكيـات فـارس وقضى على الحشـاشين وحـاصر بغداد ثم اقتحمها جنده بعد استسـلام الخليفـة المستعصم بالله تحت خـدعـة وزيـره ابن العلقمى . واشـاعـوا فيهـا الخـراب واشعلوا فيها النـار وعرضـوا سكانها على السيف وقتلوا الخليفة واثنين من ابنائه ثم انـطلق هولاكـو الى شمال الشـام ليفتـك بحلب ويقتـل اعـدادا لا تحصى من أهلهـا . واذا كـانت هـذه الهجمـات قد تحـطمت ـ الصليبيـة فى المنصورة بمصر والمغولية فى عين جالوت بفلسطين ـ الا أن الظلال السوداء التى ملأت بها سماء العالم الاسـلامى كانت من القتـامة بـدرجة افـزعت الجميـع . ويظهر ذلك واضحا فى كتابـات كثير من المؤرخين المعـاصرين للأحـداث فيقول شيخهم ابن الأثير وهو لم يـدرك سقوط بغداد وان عاصر هجمات جنكيز خان :

« لقد بقيت عدة سنـين معرضـا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها ، كارها لذكرها فأنا أقدم رجلا وأؤخـر أخرى ، فمن الذى يسهـل عليـه ان يكتب نعى الاسلام والمسلمين ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك فياليت أمى لم تلدنى ويا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا . ثم رأيت ان ترك ذلك لايجدى نفعا . هذا الفعـل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى فلو قال قائل ان العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى ادم الى الان لم يبتلو بمثلهـا لكان صـادقا فـان التواريـخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها وهؤلاء لم يبقـوا عـلى أحـد بـل قتلوا النسـاء والرجال والاطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الاجنة فانا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم »

ويقـول ابن الاثير فى مـوضـع اخـر من تاريخه الكامل[٥] :

« ولقد جرى لهـؤلاء التتار مـالم يسمع بمثله من قديم الزمان وحديثه . طائفـة تخرج من حدود بـلاد الصين لا تنقضى عليهم سنة حتى يصل بعضهم الى بلاد أرمينيـة من هذه النـاحيـة ويجـاوزون العـراق من ناحيـة همـذان . وتـا الله لا أشك ان من يجىء بعدنا اذا بعد العهد ويرى هذه الحـادثة مسـطورة ينكرهـا ويستبعدها والحق بيده فمن استبعد ذلك فلينظر اننا سطرنا نحن وكـل من جمع التاريخ فى زماننا فى وقت كل من فيه يعلم هذه الحادثة استوى فى معرفتها العالم والجاهل لشهرتها .... يسر الله للمسلمين والاسلام من يحفظهم ويحوطهم ... ولم ينل المسلمين أذى وشدة منذ جاء النبى صلى الله عليه وسلم الى هذا الوقت مثلما دفعوا اليه الان ... وتعدت هذه الطائفة منهم النهر الى خراسان فملكوها وفعلوا مثل ذلك . هذا العدو الكافـر التتر قـد وطئـوا بلاد مـا وراء النهـر وملكـوهـا وخـربـوهــا ثم الى الرى وبلد الجبـل واذربيجان [كذا] وقد اتصلوا بالكرج فغلبوهم على بلادهم والعدو الاخر الفرنج

قد ظهر عن بلادهم فى أقصى بلاد الروم بين الغرب والشمال ووصلوا مصر فملكوا مثل دمياط وأقاموا فيها ولم يقدر المسلمون على ازعاجهم عنها ولا اخراجهم منها وباقى ديار مصر على الخطر فانا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .»

ويقول ياقوت الحموي (٦) (ت٦٢٦هـ) وكان معاصرا لغارة المغول وصديقا لابن الأثير وقد استطاع أن ينجو بنفسه من الغارة :

« فأنا لله وانا اليه راجعون من حادثة تقصم الظهر وتهدم العمر وتفت فى العضد وتشيب الوليد . وتنحب لب الجليد . وتسود القلب وتذهل اللب فحينئذ تقهقر الملوك - يقصد نفسه - على عقبة ناكصا ومن الأوبة الى حيث تستقر فيه النفس بالأمن ايسا ...»

كانت هذه نظرة عابرة على القرن السابع الهجرى وحال المسلمين فيه وهو قرن يمكن ان يطلق عليه بحق قرن المأساة . ولكن على الرغم من عمق المأساة التى تعرض لها العالم الاسلامى فان القرن السابع الهجرى لم يحظ من المؤرخين بحقه من التحليل والدراسة . لقد كتبت مئات الصفحات ولكنها تناولت تاريخ هذا القرن بالسرد المسطح المصحوب بالتشاؤم واليأس ولم يتوقف كثير من المؤرخين لتحليل الاحداث التى حاقت بالعالم الاسلامى ويستنبطوا منها طبيعة الخيوط التى كانت تربط بين القوى التى اشتركت فى الهجوم على العالم الاسلامى من مختلف الجبهات .

واذا كان هدفنا من هذا البحث بالدرجة الاولى هو استقراء تاريخ البحرين خلال هذا القرن المضطرب ، الا أننا لا نستطيع ان نتغافل عما تومىء اليه سطور تاريخنا القديم من ظواهر تتبدى ملامحها وسط الاحداث هذا من ناحية ومن ناحية اخرى فان هذه الخطوب احدثت هزة عنيفة فى كل ارجاء العالم الاسلامى - والبحرين جزء منه - وانعكست اثارها بدرجة او اخرى على القوى التى كانت تحيط بالبحرين والتى كانت على علاقة بالقوى الكبرى المتصارعة فى الساحة .

وقد يكون من المقبول أن نقول ان عنف الهجمة لم يترك فسحة من الوقت للتحليل والتمحيص ولكن المستقرىء لهذه الاحداث اليوم لا يملك الا ان يتوقف طارحا بعض الاسئلة منها :

● لماذا نشطت اوروبا المسيحية فى تجريد حملة جديدة هى حملتها الصليبية الرابعة فى أوائل هذا القرن بعد ان كانت قد توقفت حينا من الدهر . وهل هناك ما يمكن ان نستنبطه من مواكبة غزوات المغول على العالم الاسلامى من الشرق لحملات الصليبيين من الشمال والغرب ؟

● هل هى مصادفة ان بلاط المغول كان به بعض الرهبان المسيحيين ففى بلاط كيوك المغولى الذى تولى الحكم عقب جده جنكيز خان (٦٤٤هـ - ١٢٤٦م) كان يوجد بعض القسس من المسيحيين وفريق من البوذيين وقد كانوا يوغرون

صدره باستمرار ضد العلمـاء المسلمين من أمثال نور الدين الخوارزمى لدرجة انهم طلبوا منه ان يستدعى هذا العالم المسلم ومجموعة من زملائه الى البـلاط لمناظرتهم حول الاسلام والمسيحية فلما أفحمهم العالم المسلم طلبوا منه ان يصلى أمامهم فلما اصطف للصلاة هو ورفاقه قام الرهبان المسيحيون بضربهم بطريقة وحشية ثم السخريـة منهم والعبث بهم بطريقة همجية ممجوجة(٧).

وفى بلاط مانجو خان ايضا وهو الذى حكم المغول بعد كيـوك تواجـد الرهبان المسيحيون بصورة واضحة ، فبعد توليه العرش بسنتين زار بلاطه وليام روبـرك وغيـره من الرهبـان المشهـورين حيث استقبلوا بمظاهر الاكرام والحفاوة(٨).

- لماذا ظهر على أوروبا المسيحية الهدوء لدرجـة انهم شغلوا بالاعـداد لحملتهم الصليبيـة الرابعـة (١٢٠٤م) عـلى الشرق رغم ان هجمات المغول كانت ترج العـالم كله رجـا عنيفـا ورغم ان هـذه الهجمات كانت قريبة جدا فقد اكتسحت المجر وبولندا ولكنها توقفت عند اوروبا الشرقية ولم تجاوزها .
- هل كان لتواجد الرهبان المسيحيين فى البلاط المغولى تأثير وهل كان هذا التواجد وراء الاندفاع المغـولى نحو الشـرق الى جنوب الروسيا وشمال الصين واكتساح جنوب غرب اسيا وهى مناطق تواجد فيها الاسلام .

كلها أسئلة قد يؤدى بحثها الى شىء وقد تقود الاجـابة عليهـا الباحثـين الى معرفة الخيـوط الرفيعة التى كـانت وما تزال تربط بين الجبهات المعاديـة للعالم الاسلامى وتنسق بطريقة غير منظورة بين هذه الجبهات خاصة والنـظرة الشاملة التى تعبـر افـاق القـرن الثـالث عشر الميلادى ـ السابع الهجرى بما يزودها به تقادم العهد من وضوح وجلاء بالاضافة الى المعطيات الجديدة لتحركات القـوى السياسية والعسكرية فى القرن العشرين كل هذه امور تفجر عشرات الاحتمالات وتتيح كمّا كبيرا من المعلومات التى يمكن ان تؤدى لكثير من النتائج . ولا يفوتنا هنا الا ان نحيى ابن الاثير فقد شك بحسه الصادق ان هناك تـرابطا بـين هجمات الشرق وهجمات الغرب .

على العموم كان هذا عـرضا سـريعا لأحوال القرن السابع الهجـرى/ الثالث عشر الميلادى وهو عرض لابد منه كمقدمة لما نحن بصدد الحديث عنه فى هذا البحث عن البحرين فى القرن السابع الهجرى .

ونأتى فى البداية الى سؤال كبير هو

أين كانت البحرين وسط هذه الأحداث الجسام ؟

رأينا فيما سبق أن الخلافة العباسية دخلت فى هـذا القرن مـرحلة الانحلال الفعـلى وأصبح الخليفـة العوبـة فى يد الجند ولم تكن الدويلات الاسلامية التى قـامت على انقـاض الكثـير من منـاطق الخلافة تقيم وزنا للخليفة وان حـرص أمـراؤها عـلى الحصول كمـا قلنا عـلى تفويض من الخليفة وهو التفويض الذى كانوا يحصلون عليه بالتهديد تارة وبالمال

عندما حمل ابن الأثير نعي الإسلام والمسلمين إلى الأجيال القادمة !

تارة اخرى . وقد حاول الخليفة فى بغداد دائما أن يضرب كلا من القوى بالأخرى ولكنه كان فى حقيقة الأمر اسير كل القوى مجتمعة فقد استعان الخلفاء العباسيون ببنى بويه الديلميين ليخلصوهم من استبداد الاتراك ثم استعانوا بالسلاجقة ليخلصوهم من البساسيرى عندما أراد تحويل الدعوة الى الفاطميين فى مصر ثم بدأوا اتصالاتهم مع الخوارزميين لتخليصهم من استبداد السلاجقة وهذا هو ما دفع بعض المؤرخين الى القول بأن الخليفة العباسى الناصر هو الذى استعان بالمغول للتخلص من تسلط الدولة الخوارزمية (٩) . على أى الأحوال فقد شبت الحرب بين المغول والدولة الخوارزمية وانتهت باكتساح سمرقند وبخارى والرى وكل منطقة ما وراء النهر . وفى سنة ٦٢٢ هـ عاد جلال الدين منكبرتى وجمع فلول جيش أبيه السلطان خوارزم شاه محمد وأعاد سيطرته على العراقين بل وهدد بغداد نفسها حتى اتفق الملك العادل الأيوبى مع كيغان كيخسرو صاحب سلطنة الروم على محاربته واحلال الهزيمة به وفى سنة (١٢٣٠ م) اغار المغول على بلاده ثانية فهرب الى الجبال حيث قتل بيد أحد الأكراد .

كانت هذه هى حال المشرق اما بالنسبة للولايات الاسلامية الأخرى فقد كانت الجزيرة العربية ومصر ومعظم بلاد الشام تحت سلطان خلفاء صلاح الدين الأيوبى ، وبعد وفاة صلاح الدين ثم وفاة اخيه الملك العادل سنة ٦١٥ هـ انقسمت الدولة بين ابنائه وأصبح سلطانهم على هذه المناطق اسميا .

الخلافة سلطانها اسمى وحتى الدول القوية نوعا والتى نشأت تحت عباءتها كالمماليك والتى كانت تمد نفوذها الى مناطق فى غرب البحرين أصبحت منهكة ومشغولة بالخلافات الداخلية والسلاجقة والخوارزميون تدقهم هجمات المغول دقا شديدا . كل هذه الظروف جعلت بعض القوى المحلية على شطآن الخليج سواء الشاطىء العربى أو الشاطىء العجمى تتمتع ببعض النفوذ بل وتأخذ طريقها لتصبح هى الأخرى دولا شبه مستقلة

تحكم ظروفها بعض القوى المحلية وعلاقات تقوى وتضعف مع الخلافة أو مع الاتابكيات أو مع الخوارزميين حسب تغير الأحوال .

فما هو حال البحرين فى هذا القرن المضطرب ؟

لقد قلنا فى بحثنا السابق والمنشور بالعدد الأول من « الوثيقة » ان دولة العيونيين فى البحرين بعد المؤامرة التى دبرت لقتل الأمير محمد بن احمد بن ابى سنان بن الفضل بن عبدالله بن على العيونى على يد الأمير غرير بن الحسن وراشد بن عميرة بن سنان بن غفيلة عادت الى الانقسام فتولى غرير حكم البحرين والقطيف اما الاحساء فقد تولى حكمها محمد بن ماجد وبعد أن تم للفضل بن محمد القضاء على غرير واستتب له الحكم على القطيف والبحرين وجه نظره نحو الاحساء فحرض الأمير أبا القاسم مسعود بن محمد بن على بن عبدالله بن على العيونى على محاربة ابن أخيه الأمير محمد بن ماجد وفعلا نشب القتال بينهما وتمكن مسعود من قتل محمد بن ماجد وتولى الامارة فى الأحساء هو وأبناؤه . وقد أرخ الشاعر ابن المقرب العيونى لاستيلاء مسعود على الاحساء بقصيدته التى مطلعها :

أتدرى الليالى أى خصم تشاغبه
وأى همام بالرزايا تواثبه

الى أن يقول :

ومن مثل مسعود الأمير اذا غدا
يغص بفضل الريق والماء شاربه
أبو ماجد[١٠] ترب العلا وربيبها
أبوه الذى تهدى السرايا مقانبه[١١]
وتلقى عليا جده خير من حدت
اليه المطايا والتقتها رغائبه
وان تفتخر بالفضل فضل بن عبدل[١٢]
فيا بأبى اعراقه ومناسبه

ولكننا ومن شعر ابن المقرب وهو مصدر ثقة لهذه الفترة نجد أن الأحوال ساءت للغاية فى عهد الفضل ومسعود سواء فى البحرين والقطيف أو الاحساء ويترجم ذلك الشاعر فى قصيدته التى يقول فيها :

بعض الذى نالنا يا دهر يكفينا
فامنن ببقيا وأودعها يدً فينا

الى أن يقول :

ان كان شأنك ارضاء العدو بنا
فدون هذا به يرضى معادينا
الحمد لله حمدا لا نفاد له
اذ لم يكن ضعفنا الا بأيدينا

وقد بلغ من سوء الأحوال أن أصبح الناس لا يأمنون على أعراضهم وأموالهم من غارات البدو وقد تلقى حادثه شكر بن مفرح بن حجاب العقيلى وهو من العقيلات من بنى عامر الضوء على ما ذكرناه . فشكر هذا كان من قطاع الطريق وكثرت حوادث سطوه ونهبه ولكن فى احدى غاراته بالأحساء تمكن بعض الأهالى من قتله فاجتمعت قبيلته وطالبت الأمير مسعود بديته فوافق على أن يدفع لهم الديه ولكن الأهالى رفضوا على أساس أن القتيل قاطع طريق ولص طالما روع الناس وآذاهم بهجماته عليهم وعلى أساس أنه قتل أثناء عدوانه عليهم فلما امتنعوا عن دفع الدية هاجمت قبيلته الأحساء ونشبت معركة رجحت فيها كفة

العقيلات فوافق الأمير مسعود ومعه الأهالى هذه المرة على دفع الدية .

هذا الضعف الذى أصاب السلطة الحاكمة فى الأحساء وجعلها تخضع لمطالب احدى قبائل البدو التى بدأت بالعداوة وقطع الطريق يعكس مدى ما وصلت اليه الحالة فى تلك الفترة وهو ما يشرحه ابن المقرب بقوله .

الى كم مداراة العدا واحترامها
وكم يعترينا ضيمها واهتضامها
سلو عن ملوك منكم هل أفادها
قعود عقيل بعدها أو قيامها
يؤدى قتيل كان فى كل ساعة
يجمع أو باشا كثيرا طغامها
ويقطع طرق المسلمين نهاره
عيانا ولا يثنيه عنها ظلامها
وما نيل غدرًا بل أتى فى عصابة
قليل من العذر الشنيع احتشامها
فأوجزها نجلاء طعنة ثائر
كجيب قميص لا يرجى التئامها

والقصيدة طويلة ويمكن الرجوع اليها فى ديوان الشاعر وهو يستنفر فيها أهل البلد ويثير فى نفوسهم الحماسة ولكنه لم يتطرق فيها لذكر الأمير مسعود وابنه الفضل ليأسه منهما ولما لم يجد لدعوته صدى سافر الى العراق ولعل قصيدته التى قالها أثناء سفرته هذه الى بغداد سنة ٦١٣ هـ تحدد لنا تاريخ هذه الحادثة ويقول فيها :

قم فاشدد العيس للترحال معتزما
وارم الفجاج فان الخطب قد فقما
ولا تلتفت الى اهل ولا وطن
فالحر يرحل عن دار الأذى كرما
ان المنية فاعلم عند ذى حسب
ولا الدنية هان الأمر أو عظما

لا يقبل الضيم الا عاجز ضرع
اذا رأى الشر يغلى قدره وجما
وأخسر الناس سعيا رب مملكة
أطاع فى أمرها النسوان والخدما

والقصيدة طويلة وقد حشد فيها كل عناصر الفخر بماضى قومه وعزهم . وفى حوالى ٦١٥ هـ تمكن الأمير على بن ماجد بن محمد بن على بن عبدالله العيونى أخو الأمير محمد بن ماجد الذى قتله عمه مسعود استطاع أن يقضى على حكم مسعود وابنه الفضل وأن يستولى على الأحساء وتصل هذه الأخبار الى ابن المقرب فى بغداد فيعود الى الأحساء مادحا الأمير على بن ماجد بقصيدته التى مطلعها :

صدت فجذت حبل وصلك زينب
تيها وأعجبها الشباب المعجب
يا هاجر الأوطان تطلب ماجدا
يلجأ اليه من الزمان ويهرب
انزل على الملك الذى بفنائه
تلقى الرحال ويستريح المتعب
لله درك يا على فلم يعد
الاك فى هذا الزمان مهذب
أضحت بك الاحساء ساكنة وقد
خفت بمن فيها وكادت تقلب
ومنعتها من بعد ما كانت سدى
فى كل ناحية تغار وتنهب
وملأتها عدلا وكانت عممت
جورا تفور به الديار وتخرب

ولكن لم تطل مدة حكم على بن ماجد فقد هاجم الأحساء الأمير مقدم بن غرير بن الحسين بن شكر بن على بن عبدالله وفى الصفحة رقم ٥٤٢ من ديوان ابن المقرب علق صاحب الديوان على هذه الحادثة قائلا :

حين خرج الأمير على بن ماجد من الأحساء بقيت قوم من أهل البلد مع مقدم بن غرير بن الحسن بن شكر بن الحسن بن عبدالله فملكها وكانت السلطنة بالبحرين قد ضعفت وساء تدبيرها وذلك انهم صاروا يقدمون قوما ليسوا من أهل الشرف ولا من أرباب الدولة ولا من القرابة لهم حتى زهد فيهم الصديق وبغضهم ذوو قرابتهم وطمع فيهم العدو ، وصارت العامة تقدم من تريد وتؤخر من تريد من السلاطين ومما بلغ من سوء تدبيرهم انه اذا ملك أحدهم أخرج جميع أهل الفضل والشرف من البلد فخرجت المملكة من أيدى أهلها بفساد التدبير وصارت البلد للعدو الذين هم البدو وما بقي السلطان يقدر على مال يجند به جنودا تمنعه وتحفظه وتدفع عنه بأس رعيته فاجترت الرعية وصار كل له صولة وكل يريد الملك على يديه ، وأعتنوا بذهاب الى ابراهيم . وغرير بن الحسن نشأ في البادية الأمر الذى جعله لا يعرف أهل البلد فأجاب أهل الخدع والمكر الى ما أرادوه في آل ابراهيم فقبض على عدة رجال منهم وألقاهم في المطمرة[١٣] ونهب ما في خزائنهم .

وبعد أن يئس ابن المقرب من نصح غرير سافر الى القطيف ونظم قصيدته التى مطلعها :

كم بالنهوض الى العلا تعدانى
ناما فما لكما بذاك يدان

ويقول شارح الديوان ان الشاعر ابن المقرب ارسلها الى ابراهيم بن جروان أحد رؤساء الأحساء وهذا خطأ لأن ابراهيم ابن جروان جاء بعد زمن الشاعر بوقت طويل والصحيح أن القصيدة ارسلت الى الأمير محمد بن عبدالله بن سنان يؤكد ذلك أحد الأبيات التى وردت فى القصيدة وهو يحدد بوضوح المرسل اليه والبيت يقول :

وصلوا حبالكم بحبل محمد
نجل المعظم عبدل بن سنان

ومحمد بن عبدالله بن سنان هو الآخر من آل ابى جروان وقد يكون ذلك هو السبب فى اختلاط الأمر على شارح الديوان وهذه القصيدة طويلة وهى تصف حالة البحرين فى أواخر ايام العيونيين خير وصف . وبعدها سافر الشاعر سفرته الطويلة الى الموصل للقاء الملك الأشرف موسى بن الملك العادل وكان صاحب بلاد الجزيرة وخلاط وميافارقين وذلك فى سنة ٦١٨ هـ وقد انتهت دولة العيونيين فى الأحساء بغرير وانتقل الحكم الى آل عصفور من بنى عقيل بن عامر وأول حكامهم عصفور بن راشد بن عميرة بن سنان بن غفيلة .

أما فى الشطر الثانى من دولة العيونيين وهو أوال والقطيف فقد ذكرنا أمراءهم فى بحثنا عن العيونيين بالعدد الأول من « الوثيقة » وانتهينا الى عام ٦٢١ هـ/ ١٢٢٤ م وهى السنة التى انتهى فيها حكم فاضل بن ماجد بن احمد بن أبى سنان بن عبدالله بن على العيونى وخلفه على الحكم أخوه جعفر بن ماجد ولم تطل مدة حكمه الا أشهرا ثم اخرجه المسيعيد من القطيف وتولى الأمر بعده ابناء الأمير مسعود بن احمد بن محمد أبى سنان بن الفضل بن عبدالله العيونى والأمير مسعود المقصود هنا غير الأمير مسعود بن محمد بن على بن عبدالله العيونى الذى حكم هو وابنه الفضل الأحساء . أما ابناء الأمير مسعود بن احمد فهم محمد وحسين

وحسن (راجع شجرة النسب المنشورة مع هذا البحث) وقد تولى ابناء الأمير مسعود الامارة على البحرين والقطيف حوالى عام ٦٢١ هـ/ ١٢٢٤ م وذكرهم ابن المقرب جريا على عادته فى التأريخ لأمراء البيت العيونى فى ثلاث قصائد ٧

فقد مدح الأمير محمد بن مسعود ويكنيه « أبا على » بالقصيد التى يقول فيها :

بعثت تهدد بالنوى وتوعد
مهلا فان اليوم يتبعه غد
ينميه عبدالله والفضل ابنه
وابو سنان ذو الفخار واحمد
وأبوه مسعود الطعان وعمه
ذو البأس والكرم الأعم محمد
يا طالبا فى الناس مثل محمد
أقصر فمثل محمد لا يوجد
يا أباعلى دعوة من مخلص
لكم الهوى وبذاك قلبك يشهد
واليكها يا أبا على مدحة
من فضلها أنى عليها أحسد

ومدح الأمير حسين بن مسعود بقوله :

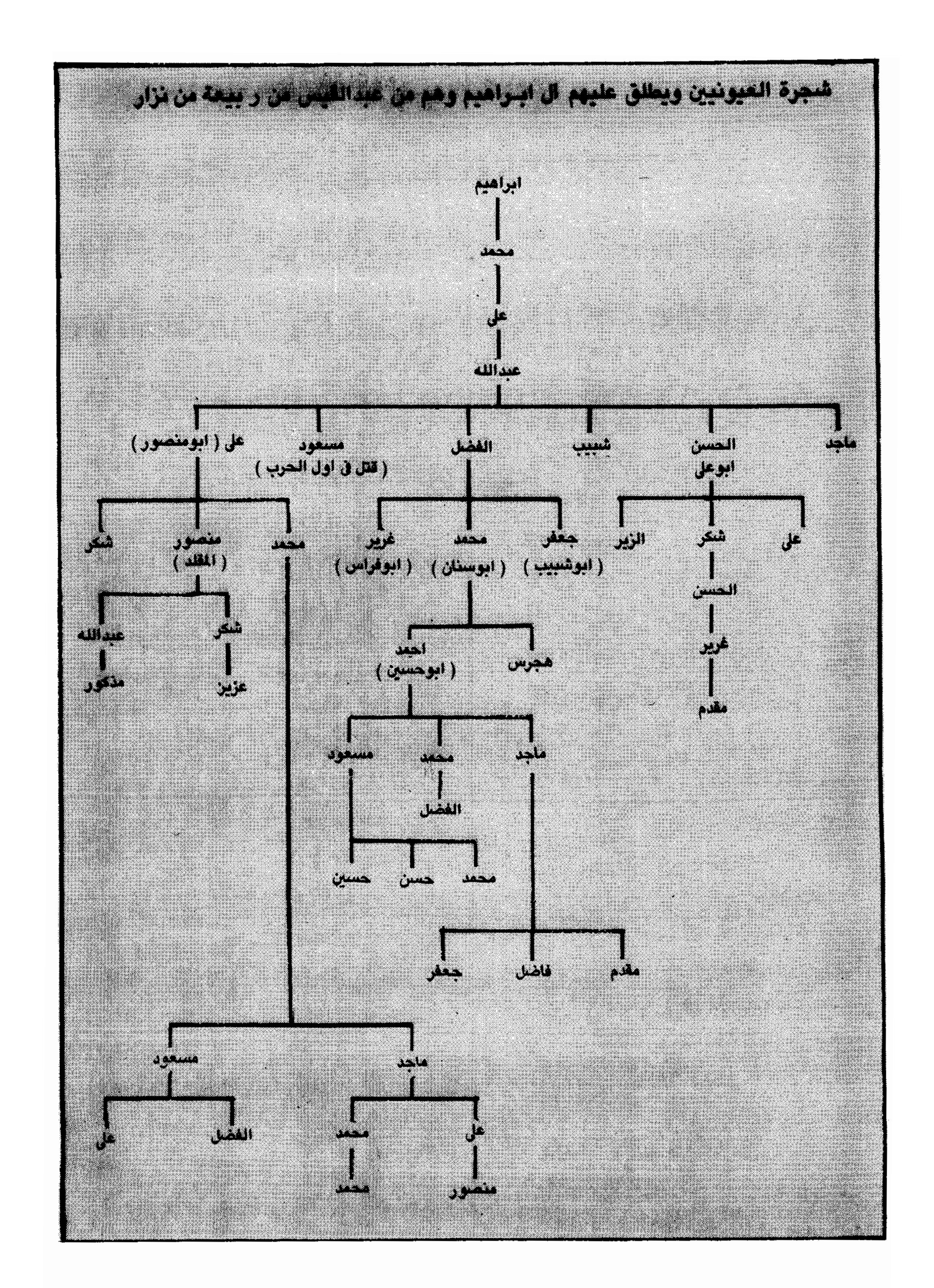
بالسيف يفتح كل باب مقفل
وتحل عقدة كل أمر مشكل
كن كابن مسعود حسين فى الندى
والبأس أو فعن المكارم فاعدل
فضل أبوهم والمعظم عبدل
من مثل فضل فى الفخار وعبدل
واذا عددت أبا سنان وابنه
وابن ابنه فاشرب خصيمك أو كل
يا من يقيس بآل فضل غيرهم
لا توهمن الدوح غير القرمل

ومدح الأمير حسن بن مسعود بقصيدته التى مطلعها :

أراه الهوى ما لم يكن فى حسابه
فأقلقه عن صبره واحتسابه

هكذا كان الحال فى داخل البحرين أثناء الحكم العيونى والذى استغرق قرابة النصف الأول من القرن السابع الهجرى فالبيت العيونى منقسم على نفسه الى ثلاثة بيوت هى بيت الفضل وبيت ابى على الحسن وبيت أبى منصور وتكاثر ابناء البيوت الثلاثة الى عشرات الابناء وتكاثرت معهم النزاعات والحروب والصراع من أجل الحكم . وقد يكون من المفيد ان ننظر الى ما يجرى على الشاطىء الآخر للخليج باعتباره ذا تأثير على مجريات الأمور فى البحرين وقتئذ .

وهذا يقتضى منا العودة للوراء قليلا . فقد زحفت قبائل الغز التركية فى أوائل القرن الخامس الهجرى قادمة من بلاد ما وراء النهر وظهرت فى خراسان وتمكن طغرل بك السلجوقى (٤٢٩ هـ) واخوته من انشاء الدولة السلجوقية واستطاع هو ومجموعة السلاطين العظام من آل سلجوق مثل ألب ارسلان وملكشاه ومحمود ناصر الدين وبركياروق ومحمد وسنجر أن يقضوا على دولة بنى بويه ـ كما قدمنا ـ وأحكموا قبضتهم على الخلافة العباسية حتى أصبحوا يتحكمون فى تعيين الخليفة وعزله وسجنه فى كثير من الأحيان وتغلبوا على كثير من البلاد الاسلامية وحكموها شكلا باسم الخليفة وان كان هذا لم يمنع من أن يدعو لأنفسهم على المنابر بعد اسم الخليفة .


شجرة العيونيين ويطلق عليهم آل ابراهيم وهم من عبدالقيس من ربيعة من نزار
ابراهيم
محمد
على
عبدالله
ماجد
الحسن ابوعلى
شبيب
الفضل
مسعود (قتل فى اول الحرب)
على (ابومنصور)
على
شكر
الزبر
الحسن
غرير
مقدم
جعفر (ابوشبيب)
محمد (ابوسنان)
غرير (ابوفراس)
هجرس
احمد (ابوحسين)
ماجد
محمد
مسعود
الفضل
محمد
حسن
حسين
مقدم
فاضل
جعفر
محمد
منصور (المقلد)
شكر
شكر
عزيز
عبدالله
مذكور
ماجد
مسعود
على
محمد
الفضل
على
منصور
محمد

الوثيقة ـ ٢١

ولكن فى أوائل القرن السادس اصاب الهرم دولة السلاجقة وانقسمت الى أتابكيات وصلت الى ١٨ أتابكية يحكم كلا منها اتابك يدفعه الطموح الى محاولة توسيع رقعة اتابكيته على حساب جيرانه وشبت الحروب واشتعل الصراع وأخذ الأتابكة يلجأون الى الخليفة يطلبون تأييده أو تفويضه أو دعمه المعنوى فى الصراع الدائر بلا هوادة فلما حل عهد الخليفة المسترشد (٥١٢ هـ ـ ٥٢٩ هـ) (١١١٨ م/١١٣٥ م) بدأ الخلفاء محاولاتهم لتقوية نفوذهم منتهزين فرصة ضعف السلاجقة وتمزق دولتهم . وتمكن الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥ هـ ـ ٦٢٢ هـ) (١١٨٠ م/١٢٢٥ م) من دعم علاقته مع الدولة الخوارزمية الناشئة واستخدمها فى الاجهاز على دولة السلاجقة عام (٥٩٠ هـ/١١٩٣ م) وقتل طغرل بن الب ارسلان آخر سلاطينهم بواسطة جيش علاء الدين محمد خوارزمشاه واستعادت الخلافة بعض هيبتها وعادت لها السيطرة على بعض الأقاليم الضائعة فى العراق العربى والأحواز وبدا أن الخليفة يستعيد ـ ولو لفترة ـ سيطرته على مقدرات الخلافة متحررا فى ذلك من النفوذ الذى فرضه سلاطين السلاجقة . والذى وصل الى حد انهم كانوا يرسمون السياسة الداخلية والخارجية للخلافة . وعندما تحللت الدولة السلجوقية كما قلنا تفرقت الى اتابكيات وحول الاتابكيات قام الولاة والمتنفذون فى كثير من الأقطار وفى جو الفراغ الذى خلقه تهاوى الدولة السلجوقية بالاستقلال بما تحت أيديهم من أقاليم مؤسسين مجموعة من الامارات والدويلات والمشيخات الصغيرة هنا وهناك . فالدولة العملاقة كانت تنقسم الى اتابكيات كما قلنا والاتابكية كانت عبارة عن اقليم كبير يحكمه أتابك وفى داخل كل أقليم أصبحت هناك المشيخات والدويلات والأمارات وهى بدورها كانت تتبع من حيث الشكل الاتابكية التى انفصلت عنها ولكنها فى غالب الأحيان كانت تخلق علاقات مع الاتابكيات المجاورة مستغلة الصراع القائم بين الاتابكيات نفسها فى تحصيل بعض المكاسب الاقليمية وحتى فى المناطق التى لم تكن فيها قوى سياسية قادرة على انشاء هذه الوحدات السياسية الصغيرة شبه المستقلة أو المستقلة قامت بعض الاسر الثرية والتى كانت تسيطر على التجارة بالتحول الى السياسة وتأسست امارات كان لها دور بارز فى بعض الأحيان . كانت هذه هى السمات العامة للجو السياسى فى هذه الفترة فاذا جئنا الى الخليج نجد بنى قيصر يتمكنون من تأسيس امارة فى جزيرة قيس أصبح لها فيما بعد تأثير بارز فى تاريخ الخليج كما تمكنت عائلة أخرى من تأسيس امارة فى هرمز وتمكن الاتابك مظفر الدين سلغر من تأسيس اتابكية شيراز التى عرفت بالاتابكية السلغرية . وقد سارعت هذه الامارات الى كسب ود الخليفة العباسى حتى تضفى على حكمها صبغة

الشرعية . ولكننا نجد الدولة السلغرية تتعرض لهجوم دولة خوارزم شاه فقد اصطدم حاكمها سعد زنكى بعلاء الدين محمد خوارزمشاه واسفرت المعركة عن وقوع سعد زنكى فى الأسر وأطلق سراحه علاء الدين بعد أن عقد معه اتفاقية تنازل سعد زنكى بمقتضاها عن جزء من بلاده كما وافق أن يخطب لعلاء الدين على منابر بلاده وأن يضرب العملة باسمه وان يرفع الراية الخوارزمية ، وتتصاعد الأحداث ويعيد التاريخ نفسه . فكما كبر البيت السلجوقى وأصبح يتحدى الخليفة كبر كذلك البيت الخوارزمى وبدأ يتحدى الخليفة العباسى وأصبح سعد زنكى هو الآخر وبحكم تحالفه مع الخوارزميين يناوىء الخليفة . وبلغت الدولة الخوارزمية أقصى اتساعها فى عهد علاء الدين محمد خوارزمشاه (٦١٤ هـ) حتى انه حاول أن يستولى على بغداد وهاجمها بالفعل ولكنه أخفق بعد أن تعرض جيشه لبعض الكوارث الطبيعية على جبال العراق فأسرع بالعودة الى بلاده التى أخذ الخطر المغولى يتهددها فى سنة (٦١٦ هـ/ ١٢١٩ م) فقد انطلق جنكيز خان فى زحفه الكاسح الذى طوى الكثير من المدن الاسلامية وعندما عاد جنكزخان الى بلاده سنة ٦٢٠ هـ كانت الدولة الخوارزمية بدورها قد تمزقت شر ممزق ومات علاء الدين خوارزمشاه دون أن يجد له أصحابه كفنا يوارون به جثمانه وفر ابنه الأكبر جلال الدين منكبرتى مع قسم من جيشه الى الهند ولم يبق الا ابنه غياث الدين الذى تمكن من الاحتفاظ بقسم من العراق لم يصل أليه المد المغولى الأول . وبعد انحسار الهجمة الأولى للمغول وسع غياث الدين سلطانه على خراسان واقليم مازندران . ولكن جلال الدين منكبرتى وبعد أن علم بعودة جنكزخان لبلاده عاد من الهند وهاجم أخاه غياث الدين وسارع حكام الاتابكيات بتقديم الطاعة له واستطاع ان يستعيد أكثر الأقاليم التى كانت تابعة لأبيه . ولم ينس موقف الخليفة من أبيه وجده فأزمع مهاجمة الخلافة وبالفعل هاجم مدينة تستر عاصمة اقليم الأحواز التابع لحكم الخليفة ثم رحل عنها وهاجم بغداد سنة (٦٢٢ هـ/ ١٢٢٥ م) وفى هذه السنة توفى الخليفة الناصر لدين الله وكان فى سنينه الثلاث الأخيرة قد أصبح عاجزا عن الحركة وقد ذهبت احدى عينيه وضعف ابصار الثانية وفى نهاية أيامه اصابته دورسنطاريا حادة لازمته عشرين يوما فقضت عليه[١٥] وخلفه ابنه الظاهر الذى حاول أن يعقد صلحا مع السلطان جلال الدين منكبرتى ولكن المنية لم تمهله فمات سنة (٦٢٣ هـ/ ١٢٢٦ م) وخلفه ابنه المستنصر وبقى العداء مستحكما بين الخليفة المستنصر والسلطان منكبرتى لذلك لا غرابة اذا ما رأينا الاتابك سعد بن زنكى حليف السلطان منكبرتى وابنه ابابكر يحاولان بتحريض من السلطان الخوارزمى تقليص نفوذ الخليفة على امارة قيس وامارة البحرين التى كانت

على علاقة طيبة بالخلافة منذ أيام الناصر كما رأينا فيما سبق أن بنى قيصر تمكنوا فى أواخر النصف الأول من القرن السادس الهجرى ان يؤسسوا فى جزيرة قيس دولة كان لها تأثير كبير فى تاريخ الخليج . وقد مكن لهذه العائلة من الحكم امتلاكها لعدد من السفن كانت تستغلها للغوص والقطاعة (النقل البحرى) وكانت لها تجارة رائجة مع الهند وافريقيا . ولما كان العيونيون هم الآخرون لهم سفنهم ويعملون بالغوص والصيد والتجارة فقد كان لابد أن تنشأ المنافسة بين القوتين وقد حاول ابوكرزاز بن سعد بن قيصر سنة (٥٤٩ هـ/ ١١٥٤ م) الهجوم على البحرين وجرد لذلك حملة بحرية بقيادة أخيه نام سار بن سعد نزلت فى سترة وتصدت لها قوة العيونيين بقيادة ابوعلى الحسن وابنه شكر ودارت بين الجمعين معركة ضارية انهزم فيها جيش قيس وأسر قائده . ولكن التنافس لم يخف بين قيس والبحرين وظلت قيس تتحرش بالبحرين وساعدها على ذلك تمزق الأسرة العيونية ـ كما أسلفنا ـ وتنازع البيوتات العيونية على الحكم . فلما اغتيل الأمير محمد بن احمد بن أبى سنان لجأ ابنه الفضل الى الخليفة طالبا دعمه وقد زوده الخليفة بالمنجنيقات والنفط اللازم لقذائفها وغيرها من السلاح وطلب منه الاتصال بأمير قيس لينسق معه عملية اعداد الجيش . ومن الواضح أن الخليفة طلب من أمير قيس مساعدته على أن يحول لدار الخلافة جزءا مما يحصله أمير قيس من عائدات البحرين . وهذا يفسر سر الاتفاقية المشئومة التى وقعها الفضل مع حاكم قيس ، اذ ما كاد يعود من عند الخليفة ويتصل بحاكم قيس الأمير غياث الدين بن تاج الدين جمشيد حتى طلب منه الأخير توقيع اتفاقية تحفظ لقيس جزءا كبيرا من عائدات البحرين ووافق الفضل وكانت هذه الاتفاقية هى كل ما يطمع فيه حكام قيس فقد تمت بموافقة الخليفة فلها اذن صفة الشرعية وجعلت البحرين شبه تابعة لهم وكانت فى نفس الوقت المسمار الأخير فى نعش الدولة العيونية وقد نصت الاتفاقية على أن يكون لأمير جزيرة قيس ما يلى :

١ ـ جزيرة اكل ومقاسمها وبرها وبحرها وخراجها وما يتعلق بها .

٢ ـ جزيرة الجارم وما يتعلق بها .

٣ ـ جزيرة الطيور وهى (تواره وقتان) .

٤ ـ أدم المدبغة ما خلا مائتى جلد .

٥ ـ ما فى ظهر الحورة وظهر سماهيج من مساكر السمك الى زروان .

٦ ـ خمسمائة دينار فى كل سنة لملك قيس .

٧ ـ أن يكون الخراج والمقاسم (النخيل) والخاصة والحلقة وطراز الغاصة والطير والطيارات والعشور بين ملك قيس وملك العرب نصفين .

٨ ـ ان يكون لملك قيس من مقاسم تاروت (الحسينى) و (الحساس) ومقسم القصر .

إمارة قيس تنتقل ولاءها

طبقاً لتغير موازين القوى

بين الخلافة العباسية والخوارزميين

٩ ـ من مقاسم القطيف بستان القصير وبستان المشعري ودالية الدار والدار والفايدية ونصف طراز الغاصة الذين هم ليسوا من أهل القطيف وخمسة وثلاثين بهارا من الخراج لملك قيس زيادة على النصف عوضا عن بستان المصفاة التى فى الاحساء .

والمتأمل فى نصوص الاتفاقية يكتشف أن (قيس) جردت البحرين من معظم دخلها ولم تترك لسكانها سوى أقل القليل وتأتى خطورتها من أنها جعلت لحكام قيس ولسلطان شيراز عندما أصبحت قيس تحت سلطانه ولأمراء هرمز فيما بعد ذريعة للتدخل فى شئون البحرين والقطيف . وكانت الاتفاقية ثمنا باهظا لنصر رخيص وليس مستغربا بعد ذلك أن جعلت سرية وساعدت قيس الفضل على استعادة الحكم فى البحرين والقطيف ولكنه لم يتمتع طويلا بثمار النصر فسرعان ماذاعت نصوص الاتفاقية وكانت عاملا حاسما فى القضاء على العيونيين .

كانت قيس اذن قوة بحرية وهذا كان مصدر قوتها ونقرأ معا ما كتبه الشريف الادريسى المتوفى عام (٥٦٠ هـ / ١١٤٥ م) حول الموضوع قال :

« جزيرة كيش وهى جزيرة مربعة طولها اثنا عشر ميلا وعرضها اثنا عشر ميلا وفيها مدينة قيس تولاها عامل من اليمن فحصنها وأحسن الى أهلها وعمرها وأنشأ بها اسطولا وصاحب جزيرة قيس يغزو بهذا الاسطول مدينة الزاج ويصل الى الكمرون وأهل الهند يخافونه ويهابون شره ويواسونه بالمراكب المسماة بالمشعيات يكون طول المركب منها طول الغراب(١٦) الكامل من عود واحد يجدف

فيها مايتا رجل وأخبر مخبر فى وقت هذا التـأليف أن عند صـاحب مدينـة قيس (كيش) من هـذه المـراكب المسمـاة بالمشعيات خمسون مركبا كل واحد منها من قطعة واحدة وعنده فى ساير المراكب الملفقة جملة عديدة . وهو الآن على هذا الحال يغزو ويسبى وعنده أموال كثيرة وليس لأحد به طاقة ولمدينة قيس زروع وأغنـام وأثمـار وبهـا مغـاص اللؤلؤ الجيد » .

يستفـاد من هـذا النص أن القـوة البحرية لقيس كانت قوة لا يستهان بها فى وقت كانت الجيوش حتى اعتاها لا تجرؤ عـلى اجتياز البحـر ، فالمغـول تـوقفـوا عند الشاطىء الفـارسى للخليج لأنـه لم تكن لهم اسـاطيل يعبـرون بهـا الميـاه وسـلطان مـسـقـط وعـمـان اسس امبـراطوريتـه التى امتـدت للسـاحـل الافريقى الشرقى معتمدا على اسطوله . فاذا صح ما اورده الادريسى فان خمسين سفينة ضخمة من نوع الغراب المشـار اليه بالاضافة الى الاعـداد الأخرى من السفن العادية لم تكن قوة بسيطة فى ذلك الوقت .

ويـصف يـاقـون المـتـوفى سـنـة (٦٢٦ هـ/ ١٤٢٩ م) جـزيـرة قيس بأنها جزيرة فى بحر عمان دورها اربعة فراسخ وهى مـدينة مليحـة المنظر ذات بساتين وعمارات جيدة وبها مسكن ملك ذلك البحر صاحب عمان وله ثلثا دخـل البحرين[١٧] وهى مرفأ مراكب الهند وبر فارس وجبالها تظهر منها للناظر ويزعمون أن بينهما اربعة فراسخ . رأيتها مرارا وشربهم من آبار فيها ولخواص النـاس صهاريج كثيرة لمياه المطر وفيها أسواق وخيـرات وللملكها هيبـة وقدر عنـد ملوك الهند لكثرة مراكبه ودوانيجه وهو فارسى شكله ولبسه مثل الديلم وعنده الخيول العراب الكثيرة والنعمة الظاهرة وفيهـا مغاص اللؤلؤ وفى جزائـر حولهـا كثيرة وكلهـا ملك صـاحب كيش ورأيت فيهـا جماعة من أهل الأدب والفقه والفضل . وكان بها رجل صنف كتابا جليلا فيمـا اتفق لفظه وافترق معناه . ضخم رأيته بخـطه فى مجلدين ضخمين ولا أعـرف اسمه الآن » .

وجاء عن جزيـرة قيس فى الموسـوعة الاسلامية طبع ليدن ولندن سنة ١٩٢٧ صفحة ٦٤٩ ما يلى :

« قيس جزيرة صغيرة تقع فى الخليج الفارسى فى القسم الذى يسميه جغرافيو العرب فى القرون الوسطى ببحر عمـان وتـقـع عـلى ٥٢° مـن خـط الطول (جرينتش) شرقا و ٢٤° من خط العرض شمالا ويجوز اعتبارها من اهم الجـزر الفـارسية فى الخليـج بعد جـزيرة كشم وتمتـد الى ١٠ أميـال طولا و ٥ أميـال عرضا وتنفصل عن البحر بممر طوله ١٢ ميلا مما يجعله ممرا مائيـا آمنا وارض الجـزيرة مسـطحة رغم تـواجـد بعض الصخور عليها وهى مزروعة أكثر من أية جزيرة أخـرى فى الخليج ويشـير علماء الجغرافية من العرب والفرس فى القرون الوسطى الى رخائها وازدهارهـا وبصفة

خاصة الى ثروتها من الأشجار والنخيل والحقول والحدائق وصهاريج الماء بالاضافة الى التجارة والملاحة . وكان عدد سكانها فى ذلك الوقت لا يستهان به يمارسون صيد اللؤلؤ ونزلها عرب من قيس واسم قيس معرب عن الفارسية وهى (كيس) او (كيش) .

مما سبق يتبين لنا مدى القوة التى كان يتمتع بها سلاطين بنى قيصر ومدى الثراء الذى كانت تتمتع به قيس لدرجة جعلت حكامها يمدون نفوذهم لبعض شواطىء عمان وسواحل فارس فى القرن السادس وأوائل السابع الهجرى . وكان ولاء بنى قيصر للخلافة العباسية فى بغداد كما كانوا يدفعون للخليفة جزءا من وارداتهم وكان للخليفة الناصر ممثل فى قيس يتولى استلام ما للخلافة من عائدات سنوية . وهنا لابد من وقفة لمناقشة طبيعة مساعدة الأمير غياث الدين جمشيد للفضل بن محمد العيونى . فقد عرفنا أن الأمير محمد كان على صلة وثيقة بالخليفة وان ابنه الفضل لجأ الى الخليفة الناصر بعد مقتل ابيه طالبا مساعدته على الثأر . والنصوص التى بين ايدينا تقول ان الخليفة زوده ببعض الجند والسلاح ولكننا مع ذلك نراه يلجأ الى غياث الدين ابن الأمير تاج الدين جمشيد حاكم قيس وهذا يؤكد لنا أمرين : الأول أن الخليفة أرسل الفضل الى حاكم جزيرة قيس مع توصية بمساعدته خاصة وقيس بولائها للخليفة وبقوتها البحرية كانت مركز ثقل فى المنطقة ، والأمر الثانى أن : الاتفاقية السرية التى وقعها الفضل مع الأمير غياث الدين كانت معروفة للخليفة وبمباركته خاصة وهى تحول جزءا كبيرا من عائدات البحرين الى قيس التى كانت بدورها تدفع جزءا من عائداتها الى الخليفة بمعنى آخر أن الخليفة الناصر طلب من حاكم قيس مساعدة الفضل العيونى على استرداد ملك أبيه مقابل عائدات تأخذ قيس جزءا منها مقابل المساعدة العسكرية وتحول جزءا منها لمقر الخلافة .

على أى الأحوال لقد أحترم أمراء البحرين المتعاقبين بعد الفضل العيونى هذه الاتفاقية على الرغم من أنها كانت السبب فى القضاء على الحكم العيونى وفتح الباب لدولة العصافرة ثم الجبور والشىء المنطقى هنا هو أن الاتفاقية بقيت بعد ذهاب الفضل لأن القوة البحرية فى قيس كانت وراء ضرورة الالتزام بها . وبقيت العلاقة بين البحرين وقيس ودية خلال الفترة من ٦٠٦ هـ الى ٦٢٦ هـ وهى الفترة التى انتهى فيها حكم الأمير غياث الدين بن الأمير تاج الدين جمشيد وخلفه فى حكم قيس الملك سلطان قوام الدين .

أما علاقات قيس بامارة هرمز فكانت سيئة فقد وقفت هرمز بقوتها البحرية منافسا صعبا أمام قيس ولما كانت هرمز تملك هى الأخرى اسطولا قويا للتجارة والصيد والغوص فقد وقعت بين الامارتين عدة مناوشات وازاء هذا

هجمات الشرق في حملات المغول الكاسحة

تنصب على العالم الإسلامي محاولة تمزيقه

الخلاف برز دور جديد لاتابكية شيراز التى تأسست فيها الدولة السلغرية فقد كان السلطان سعد بن زنكى يعمل ـ كما اشرنا الى ذلك من قبل ـ على مهاجمة الخليفة متحالفا فى ذلك مع السلطان الخوارزمى جلال الدين منكبرتى الذى كان يعتبر الخليفة مسئولا عن اثارة المغول ضد والده .

والامارتان المجاورتان فى قيس وهرمز امارتات مواليتان للخليفة . وقد شب الصراع بينهما ولكن سعد زنكى لم يكن يملك اسطولا بحريا يمكنه من التدخل عسكريا للقضاء على الامارتين أو على احداهما فلم يكن أمامه الا اثارة الفتنة بين القوتين المتصارعتين وهو ما عمل له هو وابنه ابوبكر . ولكن اذا كان الحلف بين الدولة السلغرية (اتابكية شيراز) وبين الخوارزميين تحت حكم جلال الدين منكبرتى هو الدافع الأول لتنمر السلغريين بقيس وهرمز فان هناك عاملا آخر أشد تأثيرا كان هو الدافع الرئيسى وراء محاولات السلغريين ويعود هنا العامل الاقتصادى للظهور وهو العامل الذى يرى قطاع من المؤرخين أنه هو المحرك الرئيسى وراء ما شهده التاريخ من حروب وصراعات ، لقد كانت الامارتان المتصارعتان من أكثر الامارات ثراء وكانت مغاصات اللؤلؤ والمصائد بالاضافة الى عمليات نقل التجارة من والى هذه المناطق البعيدة التى وصلت للهند وافريقيا سببا فى انصباب الثروة باستمرار على امارات محدودة السكان .

هذه الثروة أسالت لعاب السلغريين ولم يفوت السلطان ابوبكر الفرصة فى اشعال نار الفتنة بين الطرفين وضرب احدى الامارتين بالأخرى فاتصل بأمير هرمز سيف الدين أبوالنصر واغراه بمهاجمة قيس والقضاء على حكم ابناء قيصر ووعده أن يمده بالجند والمساعدة وأن يعد هو السفن لنقل هذه القوة الى قيس على أن يكون لأمير هرمز فى حالة النصر حكم جزيرة قيس بالاضافة الى ثلث دخلها بما فى ذلك ما تحصل عليه قيس من البحرين حسب الاتفاقية المبرمة مع الفضل العيونى ويكون للسلطان ابى بكر ثلثا الدخل ووافق أمير هرمز على ذلك وعقدت بين الجانبين اتفاقية بهذا الشأن وتم اعداد القوات وهاجمت جزيرة قيس

وهجمات الغرب في الحملات الصليبية الحاقدة

طبقا لنص الاتفاق وتم لهاالنصر وأسرت القوات المهاجمة الملك سلطان قوام الدين أمير قيس وتم قتله يوم الثلاثاء ١٢ جمادى الآخرة سنة ٦٢٦ هـ . وبقتله انتهى حكم بني قيصر وتولى الحكم أمير هرمز سيف الدين ابوالنصر وما فتىء أن ارسل رسله الى الأمير منصور بن على العيونى أمير البحرين والقطيف طالبا منه تسليم العوائد التى نصت عليها اتفاقية الفضل والتى كانت تدفع لقيس فسلم الأمير منصور العوائد الى رسل سيف الدين .

وبقى سيف الدين ابوالنصر يحكم قيس لمدة سنتين ولكن يبدو أن مطامع أمير هرمز لم تخف على حليفه السلطان ابوبكر بن سعد بن زنكى فلم يكد سكان قيس يعلنون استياءهم من عسف سيف الدين ابوالنصر ويراسلون السلطان ابابكر بالأمر حتى طلب منهم توفير السفن اللازمة لنقل جنوده لتخليصهم من حكم هرمز يدفعه هو الآخر الطمع فى ثروة الجزيرة وقد سهل الأمر لهذه القوى غير البحرية أن القوى المتصارعة فوق مياه الخليج كانت على استعداد لتقديم السفن اللازمة لنقل الجند . وبالفعل جهز سكان قيس السفن االلازمة وجهز السلطان ابوبكر جيشا اسند قيادته الى (صلاح الدين محمد دلر) وأمره بقتل سيف الدين ابوالنصر اذا وقع فى يده ونقلت سفن قيس القوة المتجهة لغزو قيس وشنت القوة هجومها فى شهر محرم سنة ٦٢٨ هـ وانتهت المعركة باحتلال قيس وأسر الأمير سيف الدين ابوالنصر وقتل وبعد احتلال الجزيرة اسند السلطان ابوبكر سعد بن زنكى حكمها الى شهاب الدين محمود بن عيسى وارسل نوابه هو الآخر الى أمير البحرين منصور بن على العيونى طالبا أن تسلم البحرين العوائد التى نصت عليها اتفاقية الفضل الى حاكم قيس الجديد ومرة ثانية وافق الأمير منصور على تسليم العوائد .

لم تعد قيس اذن موالية للخليفة العباسى بعد أن أصبحت تحت حكم ابوبكر سعد بن زنكى حليف المنكبرتى والذى يتخذ موقف العداء مع الخوارزميين من الخلافة . هذه الحقيقة أدت بدورها الى تغيير سير الأحداث

بالنسبة للبحرين . فالبحرين موالية للخلافة مثلها مثل جزء كبير من العالم الاسلامي الذى كان ينظر للخليفة العباسى باعتباره رمزا للاسلام وان لم يكن له فى الواقع سلطان فعلى مؤثر ولكن تغير الأحداث فى قيس جعل الحكم فى هذه الجزيرة للقوة المعارضة للخلافة بالاضافة الى ما تمثله الاتفاقية التى وقعها الفضل مع قيس من أعباء على البحرين .. هذا الواقع الجديد ظهر بوضوح في تفكير الأمير محمد بن محمد بن ماجد بن علي منصور بن على بن ماجد . فأسرع الأمير محمد الى بغداد واتصل بالخليفة شارحا له الأمر وطالبا مساعدته على التحرر من نفوذ خصومه المهيمنين على قيس ومن حكم ابن عمه الأمير منصور الذى استسلم لهم ووافق على دفع العائدات اليهم . وبالفعل أمده الخليفة بقوة عسكرية مكنته من طرد ابنعمه الأمير منصور بن على واحتلال القطيف والبحرين فى سنة ٦٣٠ هـ .

وتتسارع الأحداث بعد ذلك . فقد غاظ هذا التغيير السلطان ابوبكر وضايقته محاولة البحرين للتحرر من نفوذه ولجوئها للخليفة فى بغداد فحشد قوة كبيرة لاحتلال البحرين والقطيف .

وهنا لنا وقفة لمناقشة ما كتبه الدكتور الحميدان حول هذه النقطة .. فهو يقول ان الأمير عصفور بن راشد قد احتل القطيف في عام ٦٣٣ هـ مؤسسا دولة العصفوريين وانه اتصل من أجل ذلك بالسلطان ابوبكر فى قيس الذى ساعده على تولى حكم القطيف والقضاء على حكم العيونيين بها . ولما كانت المعركة بين الأمير محمد بن ماجد والسلطان ابوبكر قد حدثت فى عام ٦٣٣ هـ فمعنى ذلك حسب الرأى السابق أن الأمير محمد بن ماجد قد واجه فى نفس اللحظة معركة مع حاكم قيس من الشرق والعصافرة من الغرب وهو أمر لم يكن يستطيعه . والذى يستقيم مع المنطق ويؤكده ترتيب تواريخ الأحداث هو أن الأمير محمد بن ماجد اتفق مع عصفور بن راشد على التحالف لمواجهة الخطر القادم من قيس مقابل أن يتنازل له عن حكم القطيف . يؤكد ذلك أن المصادر التى بين ايدينا تقول ان حكم الأمير محمد بن ماجد على القطيف دام ثلاث سنوات وخمسة أشهر وأن حكمه على البحرين دام خمس سنوات وخمسة اشهر فاذا كان بدء حكمه فى عام ٦٣٠ هـ فانه يكون قد ترك القطيف سنة ٦٣٣ هـ وهو العام الذى هاجم فيه السلطان ابوبكر البحرين .

على أى الأحوال فقد هاجم السلطان ابوبكر البحرين بقوة كبيرة فتصدى لها الأمير محمد بن ماجد العيونى ودارت معركة حامية اسفرت عن هزيمة جيش قيس ودحر القوة الغازية . ولكن السلطان ابوبكر لم ينس هزيمته فما كاد يعود الى قيس حتى شرع فى تجهيز حملة أخرى .

ولكن الظروف كانت قد تغيرت فقد اكتسح التتار فى هجمتهم الثانية الدولة الخوارزمية الثانية وقتل السلطان جلال الدين منكبرتى فى منتصف شوال ٦٢٨ هـ اغسطس ١٢٣١ م وأصبحت الدويلات الاسلامية مكشوفة أمام الغزو التترى الكاسح الذى ركز اندفاعه هذه المرة نحو الشرق . ووجد السلطان ابوبكر نفسه وحيدا بعد أن داست حوافر الخيل الدولة التى كانت متحالفة معه ضد الخلافة . فبدأ فى الاتصال بالخليفة واعلن ولاءه له وتعهد له بأن يدفع لدار الخلافة العائدات التى كان يدفعها امراء بنى قيصر بعد تحصيلها من العيونيين . وبعد أن مهد بذلك لحملته المقبلة جهز جيشا كبيرا قاده بنفسه وانضم اليه الكثير من عرب الساحل وهاجم جزيرة البحرين وتمكن من احتلالها وقتل الأمير محمد بن محمد بن ماجد . وصودرت جميع ممتلكات العيونيين وتعرضوا للقتل والسلب وبقتل الأمير محمد انتهى حكم العيونيين على البحرين سنة ٦٣٦ هـ وقد كتب الدكتور الحميدان فى ذلك نقلا عن وصاف الحضرة : « يعطينا وصاف الحضرة بعض المعلومات المفيدة عن علاقة اتابكة فارس بالخلافة العباسية حيث قال بأنه بعد الاستيلاء على أوال والتى يسمونها البحرين ثبتت فى ديوان الخليفة المستعصم بالله . وفى كل سنة يكتب دخلها وخراجها ويرسل به الى بغداد مع معتمد الخليفة فى أوال » .

ولكن الأمر لم يدم طويلا فازاء الزحف المغولي . تحول السلطان أبو بكر عن الخلافة التى تلفظ أنفاسها الأخيرة وسارع يخطب ود المغول فأرسل الهدايا الثمينة مع أخيه تهمتن الى اوكتاى بن جنكيز خان وخليفته فى حكم التحالف المغولى وبذلك تمكن من درء الخطر المغولى عن بلاده .

الهوامش

١ ـ محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية (الدولة العباسية) للشيخ محمد الخضرى بك ص ٤٣٨ .

٢ ـ تختلف كلمة تتر بالمعنى العام باختلاف العصور ، فقد اطلق هذا اللفظ على جماعتين من قبائل التتر ورد ذكرهما فى نقوش الأرخون التركية التى ترجع الى القرن الثانى الهجرى كما أطلق هذا الأسم على المغول عامة أو على فريق منهم خاصة وفى جميع الفتوحات المغولية التى وقعت فى القرن السابع الهجرى كان الفاتحون يطلق عليهم التتر فى كل مكان نزلوا فيه سواء أكان فى الصين أم فى البلاد الاسلامية أم فى بلاد الروسيا وغربى اوروبا وسمى ابن الاثير اسلاف جنكيز خان باسم التتر وهم التتر الأوائل ولم يظهر اسم المغول على صفحات التاريخ حتى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ومن المرجح أنه اطلق على تلك العشائر التى انضوت تحت لواء زعيم احدى قبائلهم كان يحمل ذلك الاسم ثم بسط هذا الزعيم سلطانه على سائر العشائر المتحالفة ومن ثم اطلق عليه اسم المغول انظر تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم حسن الجزء الرابع ص ١٣٠ ـ ١٣١ .

٣ ـ جنكيز خان (١١٦٧ م ـ ١٢٢٧ م) فاتح مغولى اسمه الاصلى تيموجين خلف أباه يقوصاى رئيسا للتحالف المغولى . اتخذ تيموجين لقبه سنة ١٢٠٦ م بعد اتمام فتح منغوليا وتأسيس عاصمة له فى قراقورم . هاجم ١٢١٣ امبراطورية الشان فى شمال الصين وفى عام ١٢١٥ كان قد استولى على غالبية أراضيها بما فيها العاصمة ينشنج (بيننج الحالية) فتح ١٢١٤ ـ ١٢٢٤ تركستان وبلاد ما وراء النهر وأفغانستان وأغار على فارس والدول الواقعة حاليا فى جنوبى روسيا . توفى أثناء حربه ضد الشان وقسمت مملكته بين اولاده الثلاثة عرفت حروب جنكيز خان بالمذابح الرهيبة ولكنه كان حاكما بارعا وبقيت امبراطوريته حتى ١٣٦٨ م وقد تحدر منه تيمور لنك .

(الموسوعة العربية الميسرة ص ٦٥٠)

٤ ـ هو لاكو خان (١٢١٧ ـ ١٢٦٥ م) فاتح مغولى حفيد جنكيز خان وجهه أخوه منكو خان المغولى الأعظم لاخماد ثورة فى فارس فعبر نهر جيحون ١٢٥٦ م فأعلن صغار أمراء فارس ولاءهم له . قام ابان هذه الحملة بالقضاء على الحشاشين وقتل ركن الدين زعيمهم . اتجه غربا فزحف على بغداد التى سقطت عام ١٢٥٨ م فى يده بعد مفاوضات مع الخليفة العباسى المستعصم بالله فقتل الخليفة وعددا كبيرا من رجاله ونهب قصره . زحف فى ١٢٦٠ م على شمال الشام وفتح حلب وفتك بعدد كبير من أهلها . رفض المماليك الاستسلام له وزحف السلطان قطز لملاقاته والحق به الهزيمة فى عين جالوت قرب الناصرة بفلسطين استسلم هولاكو وانسحب شرقا .

(الموسوعة العربية الميسرة ـ طبعه دار النهضة بلبنان ١٩٨١)

٥ ـ الكامل جـ ١٢ ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦
٦ ـ تاريخ الاسلام ـ د . حسن ابراهيم حسن جـ ٤ ص ١٤٦
٧ ـ د . حسن ابراهيم حسن ـ تاريخ الاسلام جـ ٤ ص ١٥٣
٨ ـ نفس المصدر السابق
٩ ـ تاريخ الاسلام : د . حسن ابراهيم حسن جـ ٤
١٠ ـ ابوماجد : هو محمد بن علي والد مسعود
١١ ـ المقانب : هى الخيل تتجمع للاغارة (المنجد)
١٢ ـ فى هذا البيت يشير الشاعر الى أن الممدوح مسعود جده لأمه هو الفضل بن عبدالله بن علي العيونى أى أن آل الفضل هم أخوال مسعود وهذا هو سر مساعدة الفضل لمسعود لأنهم أخواله .
١٣ ـ المطمرة : سجن يشبه الجب ينزل فيه السجين بواسطة حبل ثم يرفع الحبل ويترك السجين فى قعر الجب ويزود بالماء والاكل بواسطة الحبل (الباحث)
١٤ ـ القرمل : هو شجر ضعيف لا شوك فيه وفى المثل « ذليل عاد بقرمله » (المنجد) والدوح هو الشجر السامق العظيم فهو هنا يصف آل فضل بالدوح ويصف غيرهم بالشجر القصير الضعيف الذى لا شوك فيه يذود عنه .
١٥ ـ محاضرات تاريخ الأمم الأسلامية ـ الشيخ محمد الخضرى بك ص ٤٧٦
١٦ ـ الغراب : نوع من السفن
١٧ ـ يشير بذلك الى الاتفاقية التى اوردناها فيما سبق .

⊕ ⊕ ⊕